لا تجنى الصحافة على الأدب ولكن على فنيته

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالوا إن الأصمعي كان ينكر أن يقال في لغة العرب (ملح)، ويقول إنما هو مِلح، وإن (ملح) هذه عامية، فلما أنشدوه في ذلك شعراً لذي الرمة يحتجون به عليه قال: إن ذا الرمة قد بات في حوانيت البقالين بالبصرة زمانا ....

يريد شيخنا هذا: أن (الملح) في الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون، ولغتهم عامية مُزالة عن سَنَنها الفصيح، مصروفة الى وجهها التجاري. ولكن كيف بات ذو الرمة في حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه اليها الطبع العامي، ولم يخالط عربيته غير هذه الكلمة وحدها؟ لم يقل الأصمعي شيئا، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية الى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء، فلما كان بها استضاق فلم يصب لجوفه غير الخبز، ولم يجد للخبز غير (الملح) يُسيغه به ليجد المسلك في حلقه، قالوا فيأتي البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة)، ويعرفونه مُضيقاً الى فرج، فيُنفسون له في الثمن الى أجل، حتى يمتدح وينال الجائزة. قالوا ثم يعطره الممدوح ويلوي به ولا يرى في تلفيق العيش رُخْصاً إلا في (الملح) فيتتابع في الشراء ويمضون في إسلافه إبقاء عليه وحسنَ نظر منهم لمنزلته وشعره، ويرى هو أن لا ضمان للوفاء بما عليه إلا نفسه، فما بُدَّ أن يتراءى لهم بين الساعة والساعة، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم، وهم على طبعهم وهو على سجيته. ثم لا يقتضونه ثمنا، ولا يزالون يمدون له، فلا يزال (الملح) أيسر منالاً عليه، كما هو الى نفسه أشهى، وفي جوفه أمرأ، لمكان أعرابيته، وخشونة عيشه، فيصيب عندهم مرتعة من هذا (الملح). قالوا ثم يرى البقالون أن لا ضمان لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم، فيلزمونه الحوانيت بياض يومه، ويغلقونها عليه سواد ليلته، فهم يمسكونه بالنهار، وتمسكه الحيطان والأبواب بالليل.

فلما عظم الدين وبلغ الجملة التي فاتت حساب الأيام الى حساب الأهلة أحضر الشاعر كربه وهمه، ولم يعد (المالح) ينجع فيه، ولا يجد به غذاء بل حريقاً في الدم، ورأى أنه قد امتحن بهذا (الملح) الخبيث، وأشرط نفسه فيه، وارتهنه به، فلا يزال من (الملح) هم في نفسه، ومغص في جوفه، ولفظ عن لسانه، ودين على ذمته؛ ولا يزال مهموماً به، إذ كان على طريق من طريقين: إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر. وحَبْس ذي الرمة في ثمن (الملح) هو حبس عند الشرطة، ولكنه قتل أو شر من القتل عند صاحبته ميّتة إذا تراءى اليها الخبر، والأعرابي الجلف الذي يحبس في ثمن (مالح) عند الوالي بعد أن بات زماناً رهناً به في حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لمي، وهي مَن هي! «لها بشر مثل الحرير، ومنطق رخيم الحواشي» فلا (الملح) من غذائها، ولا لفظ (الملح) من الكلام الذي يكون في فمها العذب. وأبعد الله جاريتها الزنجية إن لم تأنف لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الخشن الذي ألحقه (الملح) باللصوص والعارمين، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على سوادها في الناس، فكيف بمي وهي أصفى من المرآة النقية، وأبيض من الزهرة البيضاء؟

قالوا: ويصنع الله لغيلان المسكين، فيمدح وينافق ويحتال، ويعده الممدوح بالجائزة إذا غدا عليه، ويكون ذلك والشمس نازلة الى خدرها، فينكفئ الشاعر الى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيه أخرى لياليه، ويغلقون عليه وقد سئموه آكلاً وماطلاً، وهان عليهم فلا يعتدونه إلا قارأ من قِران حوانيتهم، غير أنه يأكل فيستوفي، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة، بل ذا الغمة ... فلم يعطوه لمشائه هذه المرة إلا مافسد وخبث من عتيق (الملح)، فهو نتن يسمى طعاما، وداء يباع بثمن، وهلاك يحمل عليه الاضطرار كما يحمل على أكل الجيفة، وكانوا قد وضعوه في آنية قذرة مُتلجّنة طال عهدها بالغسل والنظافة، وفيها بقية من عفن قديم، فلصق بها مالصق، وتراكب عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

ثم يتهيأ الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بركتها فيستجيب الله له ويفرّج عنه، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه، ولكن (الملح) الذي تغدى به كان قد أحرق جوفه وأضرم على

أحشائه وهو فى صيف قائظ ، فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة ، واللصة بعد اللصة ، حتى استنف القدح وأتى عليه ، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جر عليه . ثم يعضه الجوع فيكسر خبزته ويسمى ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكرة ، فينظر فى الآنية وقد نفذ اليه الضوء من قنديل الحارس فاذا فى (المالح) - نساء قد انفجرت شبعاً ، ويدقق النظرة فاذا دويبة أخرى قد تفسخت وهرأها (المالح) وفعل بها وفعل . قالوا وتثب نفسه الى حلقه ولا يرى الطاعون والبلاء الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) فيتحول الى كوة الحانوت يتنسم الهواء منها ويتطعم الروح وهى مضببة بالحديد ، ولا يزال يراعى منها الليل ويقدر منزلة منزلة بحساب البادية ، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبح العابد القائم فى جوف الليل . ويطول ذلك عليه حتى إذا كاد ينشق لمع الفجر لعينه فلا يراه الشاعر إلا كالنذير يتفجر بالماء الصافى ويود لو انصب هذا الضوء فى جوفه ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح). ثم يأتى الله بالفرج وبصاحب الحانوت فيفتح له ، ويغدو ذو الرمة على الممدوح فيقبض الجائزة وينقلب الى حوانيت البقالين فيوفى أصحابها ماعليه ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة ، فيخرج من البصرة على حمار اكتراه وقد فتحت له آفاق الدنيا ، وكأنما فرّ من موت غير الموت ، ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل ، ولكن اسمه (المالح) .

قالوا : ويحركه الحمار للشعر كما كانت تحركه الناقة فيقول :

أخزاك الله من حمار بصرى ، إن أنت فى المراكب إلا (كالمالح) فى الأطعمة . ثم يغلبه الطبع ، وينزو به الطرب ، وتهزه الحياة فيهتاج للشعر ويذكر شوقه وحبه ودار مىّ ، وفى (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح) ، فيأتى هذا (المالح) فى شعره ويدخل فى لغته فيقول الشعر الذى أهل الأصمعى روايته لأن فيه (مالح) ، وما أدرى أنا ما هو ، ولكن لعله مثل قول الآخر :

ولو تفلت فى البحر والبحر (مالح)
لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

أو مثل قول القائل :

بصرية تزوجت بصريا يطعمها (المالح) والطريا

* * *

هذه هى الرواية التمثيلية التى تفسر كلام الأصمعى ولا مذهب عنها فى التعليل اذا صار (المالح) كلمة نفسية فى لغة ذى الرمة على زعم أنف الأحمر والأسود ، والأصمعى وأبى عبيدة ، فالرجل من الحجج فى العربية إلا فى كلمة (المالح) فانه هنا عامى يقال حوانيتى نزل بطبعه على حكم العيش ، وغلبه ما لا بد أن يغلب من تسلط (واعيته الباطنة)[1]

والحكمة التى تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة ، ولا بد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله ، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر. واذا كان فى النفس موضع من مواضعها أفسده العمل — ظهر فساده فى الذوق والادراك فطمس على مواضع أخرى ، فلا تنتظر من صحافى قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام ألا يكون له فى الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذى الرمة وان كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وحدهم .

و (المالح) الذى رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا أنه كتب فى إحدى الصحف عن ديوان هو فى شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوقى وحافظ رحمهما الله ، فيأتى بالمجاز بعد الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر ثم يقول : هذا عجيب تصوره ، لا أعرف ماذا يريد ، السيلى للشعاع غير مقبول . ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله : «والأصل فى الكتابة أنها للافهام ، أى نقل الخاطر أو الاحساس من ذهن الى ذهن ومن نفس الى نفس ، ولا سبيل الى ذلك اذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والابهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء ، واذا كنت تستعمل اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد به ، فكيف تتوقع منى أن أفهم منك . »

لا ، لا ، هذا (مالح) من مالح الأدب ، فاذا كان الضعف والابهام والركاكة وسوء الافهام وضعف الأداء — آتية فى رأى الكاتب من استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له — فان محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها

---

(١) وضعنا هذه الكلمة لما يسمى (العقل الباطن) وهى أدق فى التعبير تستوفى كل معانى الكلمة ، ولا معنى لأن يكون هناك عقل ، ثم يكون باطناً غافلاً فان هذا بعيد لا يسوغه الاشتقاق .

مأتى كذلك الا استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له .

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع فى قوله تعالى : « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

أتراه يقول : كيف قدم الله ، وهل كان غائباً أو مسافراً ، وكيف قدم الى عمل ، وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع فى هذه الآية : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » أيسأل : وهل للأرض حلق تحركه عضلاته للبلع ، واذا كان لها حلق أفلا يجوز أن ترمى فيه فتحتاج الى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول فى حديث البخارى : إنى لأسمع صوتاً كأنه صوت الدم ، أو صوتاً يقطر منه الدم (كما فى الأغانى) » أيوجه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ، ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجرى الدم فيها ؟

إن الافهام وثقل الخاطر والاحساس ليست هى البلاغة وان كانت منها ، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات فى الأدب ، إذ هى من هذه الناحية لا يقدح فيها ولا ينقص منها ، وما قصرت قط فى ثقل خاطر ولا استغلقت دون افهام .

ههنا خوان فى مطعم كمطعم (الحاتى) مثلاً عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافاً مصنفة ، وآخر فى وليمة عرس فى قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة فى القلب بنور وجهها الجميل . أفترى السهولة كل السهولة إلا فى الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا فى الثانى ؟ ولكن أى تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فنى ليس إلا ، به يتضاف الجمال الى المنفعة فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزين المائدة والنفس معاً ، وهو كذلك تعقيد فنى لاءم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر وجاء بروح الموسيقى التى يقوم عليها الكون الجميل فبثها فى هذه الأشياء التى تقوم بها المائدة الجميلة ، واستنزل سر الجاذبية لجعل المائدة بما عليها شعوراً متصلاً بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلاً بالمائدة .

وهذا التعقيد الذى صور فى الجماد دقة فن العاطفة هو بعينه فنية السهولة وروحيتها . وتلك السذاجة التى فى المائدة الأخرى هى السهولة المادية بغير فن ولا روح ، وفرق بينهما أن احداها تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به ، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف .

والوجه فى الشوهاء وفى الجميلة واحد لا يختلف بأعضائه ولا منافعه ، ولا فى تأديته معانى الحياة على أتمها وأكملها ، بيد أن انسجام الجميل يأتى من إيجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه ، وجعله بكل ذلك يُظهر فنه النفسى بسهولة منسجمة هى فنيته وروحيته ؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يُظهر منه شيئاً إذ كان قد فقد التدقيق الهندسى الذى هو تعقيد فن التناسب ، وجاء على المقاييس السهلة من طويل الى قصير ، الى ما يستدير وما يعرُض ، الى ما ينتأ من هنا وينخسف من هناك ، كالوجنة البارزة ، والشدق الغائر ، فهذه السهولة المطلقة فى الوضع كما يتفق هى بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذى لا محل فيه للفظة (كما يتفق) .

والطريقة التى يكون بها الجمال جميلاً هى بعينها الطريقة التى يكون بها البيان بليغاً ، فالمرجع فى اثنيهما الى تأثيرها فى النفس . وأنت تقول : إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم ، وذاك سهل والآخر معقد ، وواضح ومغلق ، ومستقيم على طريقته ومحول عن طريقته . انك فى ذلك لا تدل على شىء تعيبه أو تمدحه فى الجمال أو البلاغة أكثر مما تدل على ما يُمدح أو يُعاب فى نفسك وذوقها وإدراكها .

ومعانى الاختلاف لا تكون فى الشىء المختلف فيه ، بل فى الأنفس المختلفة عليه ، فان محالاً أن تكون الجميلة ممدوحة مذمومة لحالها فى وقت معاً ، وإلا كانت قبيحة بما هى به حسناء ، وهذا أشد بعداً فى الاستحالة ، وحكمك على شىء هو عقلك أنت فى هذا الشىء .

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدت دواعى الاستحسان فى أنفسهم مختلفة ، وكذلك هم فى دواعى الذم اذا عابوا . ولكن متى تعينت الوجوه التى بها يكون الحكم ، ورجع اليها المختلفون ، والتزموا الأصول التى رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم فى الذوق والفهم فذلك ينفى أسباب الاختلاف لما يكون من معانى التكافؤ وخاصة المناسبة . ولهذا كان الشرط فى نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع فى بيانه لم تفسده نزعة أخرى ، وفى نقد الشعر أن يكون من شاعر علت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعة أخرى تفسده .

وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب

البلاغة إلا أسلوب طبيعي لامذهب عنه للنفس الفنية ، إذ هي بطبيعتها تريد دائماً ما هو أعظم ، وما هو أجل ، وما هو أدق . وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها ؛ ويخرج من هذا أنه عمل فارغ ، واساءة في التأدية ، وتحمل لا عبرة به . ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى لا زيادة معانيها فتصنع ألفاظها صناعة تولبها من القوة ما ينفذ الى النفس ويضاعف احساسها ، فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس . ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً في الطبيعة الى أن يكون روحانياً في الانسانية . والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد ، والبيان في صناعة اللفظ يقابل هذا النحو ، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك ، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت ، وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لابد منها لاحداث الاهتياج في ألفاظ اللغة الحساسة كي تعطي الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تعطيه .

لقد تكلموا أخيراً في جناية الصحافة على الأدب . والصحافة عندي لاتجني على الأدب ولكن على فنيته ، فلها من الأثر على سليقة البليغ وطبعه قريب مما كان لحوانيت البقالين في البصرة على طبع ذي الرمة وسليقته . وكلما قرب الصحافي من الصنعة وحقها على الجمهور بعد عن الفن وجماله وحقه على النفس ، وهذا واضح بلا كبير تأمل ، بل هو واضح بغير تأمل . . .

مصطفى صادق الرافعي

أبو علي عامل أرتست

مجموعة قصص مصرية

تأليف

الأستاذ محمود تيمور

يطلب من مكاتب القطر الشهيرة وثمنه خمسة قروش خلاف أجرة البريد

نزع السلاح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سمعنا خلال الأعوام الأخيرة كثيراً عن مسألة نزع السلاح ، وعن اللجان والمؤتمرات العديدة التي عقدت في جنيف وغير جنيف لبحثها ؛ ومنذ أسابيع يدور حديث نزع السلاح في جنيف مرة أخرى ، وتعرض مختلف الاقتراحات والتصريحات . ولكن مؤتمر نزع السلاح يعقد هذه المرة في جو قاتم يفيض بالتشاؤم ، وسير العلائق الدولية أشد ما يكون اضطراباً ، والدول الكبرى أشد ما يكون رغبة في التسليح ؛ وليس في مناقشات جنيف ما يؤذن بتفاهم الدول على أية قاعدة أو مبدأ ، بل كل ما هنالك يدل بالعكس على أن مفاوضات نزع السلاح غدت مناقشات فقهية عقيمة ، تستتر وراءها الدول لتؤكد من الوجهة النظرية نياتها السلمية ، بينما هي تتسابق جميعاً في فتح الاعتمادات الحربية والاستزادة من التسليح سواء في البر أو البحر أو الهواء .

وقد كان رأينا دائماً ، منذ بدأت أعمال مؤتمر نزع السلاح ، أن هذه المناقشات الفقهية لا يمكن أن تؤدي الى أية نتيجة عملية ، وان الدول المتفوقة في سلاحها وأهبتها الدفاعية لا يمكن أن تفرط في هذا التفوق مختارة ، وان أساليب السياسة القومية لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل الحرب ، وما زالت القوة المادية عمادها . ولقد انتهى مؤتمر نزع السلاح أحياناً الى بعض نتائج عملية خيل للعالم معها أنه سائر الى تحقيق الغاية المنشودة من عقده ، ولكن هذه النتائج لم تتعد الاتفاق على بعض المسائل التمهيدية كأنواع الأسلحة ومعاييرها ، وتعريف بعض الهيئات العسكرية ؛ وأسفرت المفاوضات بين الدول العظمى عن عقد معاهدة تحدد نسب التسليح البحري بينها ، ولكن هذه المعاهدة لم تحترم ولم تنفذ ، ولا تعتبر اليوم سوى قصاصة ورق لا قيمة لها . وقدمت الى مؤتمر نزع السلاح اقتراحات رسمية عديدة لتخفيض التسليح ، فكانت تقابل دائماً حين عرضها ومناقشتها بكثير من التأييد والحماسة ، ولكنها لم تسفر عن أي اتفاق عملي .

كانت فكرة نزع السلاح من أجل الفكر التي ظهرت عقب